خطوات نحو التصوف

للاستاذ محمد لبيب البوهى

بعث الله الأنبياء ليعلموا الناس كلمة واحدة وهى « الله » فمن سمعها بأذنه فقط فما وعاها فاته كل الخير . وأما من سمعها بروحه وأشربها قلبه وتذوقها حتى نفذت الى أعماقه . فذلك الذى ألهم بركاتها وانفتحت له أبواب كل شىء .

هناك أمور زائفة ألصقت بالتصوف وتراكمت على أبوابه وعاقت فى أكثر الاحيان سبيل السالكين .. ومن حق التصوف على كل مسلم أن يدفع عنه كل ريبة .. وأن يعمل على حفظه نقيا كما كان وكما يجب أن يكون ..

سمعت انسانا يقول .. ان التصوف لا يغرينى بالاقتراب منه أنه يدعو كل عاقل أن ينجو عن مخالبه — فمن ذا الذى يرضى أن يبحث جاهدا عن الفقر ويقدس الحرمان ، ويلقى بنفسه فى بحر الكسل والتواكل .....!!

هذا بهتان من القول وزور كبير .. وليس ذلك من التصوف فى كثير أو قليل .. ان التصوف لايحارب المال .. وانما هو يربى النفس فى هذا الباب حتى لا تكون شهوة التملك غلابة لذاتها ، فالتملك حبا فى التملك ، فحسب .. انما يقهر فى النفس كل رغبة فى البذل والعطاء ولا خير فى أن يكون الصوفى أكثر الناس مالا .. ولكنه يشعر بأنه لايملك شيئا ان ماله الذى فى يده ليس له .. وانما لله .. وما هو عليه الا حارس من أن تمتد اليه يد بغير حق . انه موظف مؤتمن على هذا المال .. كموظف البنك أو البريد تستودعه الحكومة أموالا ، فلا يحزنه أن يتقدم اليه طلابها من حملة الشيكات والاسهم يطلبون نصيبهم وحقهم المعلوم .. انه لايجزع من ذلك وانما هو يتعجلهم ليصفى عهدته ويذهب مستريحا ليضع فى أمانة كشف الحساب .

وأما كلمة التواكل فان معناها مستبهم على كثير من الأفهام .. وأنهم ليخلطون بينها وبين التوكل الذى لبابه تسليم الأمر كله لله مع الأخذ بالاسباب .

فالصوفى الحق لا يتجنب التماس الطب اذا أصابته الأمراض ولا يسكت

ايمانه فتاتيه مشرقة بنور الحق فياخذ بها قويا لايهـاب ... فلا يطيش عقله عند الفشل ولا يجزع لهول المصاب .

ان لباب التصوف فى صدق التوجه الى الله .. فى استقرار هذا المعنى فى القلب .. فى اشتراك الجـوارح فى أداء وظائفها على ضوء الايمان .. ومن هنا يحرص الصوفى على الالمام بعلوم الشريعة فمن الحقائق المقررة أنه لاتصوف الا بفقه . والفقه هو السبيل الى معرفة أحكام الله تعالى الظاهرة .

كما أنه لافقه الا بتصوف .

وقد يبدو هذا غريبا .. ولكن المتأمل سيدرك مافى هذا القول من حق ـ ذلك لان التصوف هو صدق التوجه الى الله ـ ولا قيمة كبيرة لاعمـال الجوارح ما لم تكن تلك الأعمال صادرة عن صدق توجه واخلاص ...

ومما يحفظه الصوفى فى هذا المعنى قول مالك رضى الله عنه من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق .. ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق .. ومن جمع بينهما فقد تحقق .

الصوفى يجعل حياته كلها لله ـ وهو لا يؤدى ذلك برما متعبا وانما يجد فى ذلك سعادة نفسه وطبيعتها ـ انه يراه سبحانه فى كل أمر .. لايلفظ كلمة الا وهو يرى فى موضعها مرضاة الله ـ ولا يأتى عملا الا وهـو يرتد أن يستبين فيه طـريقا الى الله ـ فالذات الالهية هى شغله الشاغل ـ وهو يجعل من الكون كله مادة خام يريد أن يحولها الى نور لينفذ له من خلال ذلك شعاع من يقين .

والصوفى المبتدىء يمرن نفسه على مراقبة افعاله وأقواله حتى تصبـح خشية الله عادة أصيلة فى نفسه لايستطيع منها فكاكا ـ لو حاول ذلك ـ وهو لايجعل الخشية مجرد فكرة مجردة بل يتصرف فى كل شىء على ضوئها أى أنه يترجم هذا المعنى دائما الى عمل ... وهو يجاهد دائما فى سبيل امتزاج فكرته تلك بعمله ... فمن تم له ذلك فقد حق له أن يتقدم خطوة نحو الباب ..

ذلك لان من عرف نفسه فقد عرف ربه ..

والمنبع الأول للتصـوف كتاب الله وسنة نبيـه .. ثم الهامات بعض الصالحين ممن انكشفت لهم أنوار الطريق ... وقد ذهب الغزالى رضى الله عنه الى اعتبار التصوف فرض عين .. اذ أنه صفاء النفس ، والنفس يجب مجاهدتها لتصفو ، اذ لا يخلو قلب انسان بعد المعصومين من داء أو مرض فمثل التصوف على هذا الاساس من الدين كمثل الروح من الجسد . فلا حياة بغير روح ـ فالتصوف روح الايمان .. وبذلك فلا غنى عنه لاحد . وانما يجب التماسه من أصوله ومنابعه الصافية ـ وسنسير باذن الله فى المقالات القادمة ـ ان أفسحت لنا المجلة صدرها ، نحو ذلك خطوات .. خطوات نحو التصوف .. نحو باب الأبواب .. باب الله .

محمد أديب البوهى